رعاية الرسول ﷺ للضعفاء

الفقراء . الخدم . العبيد . المعاقين . المسنين

محمد مسعد ياقوت

مخطط البحث :

المبحث الأول : رحمته للفقراء

المبحث الثاني : رحمته للعبيد والخدم

المبحث الثالث : رحمته لذوي الاحتياجات الخاصة

المبحث الرابع : رحمته للمسنين

المبحث الخامس : رحمته للأموات

فهذا هو جهدنا المتواضع ..

وأسال الله أن يتقبله، وأن يهدي وينفع به،..وأن يجعله في ميزان حسنات كل من ساهم في نشره

محمد مسعد ياقوت، مصر

باحث وداعية إسلامي من مصر

المشرف العام على موقع نبي الرحمة

جوال: ٠٠٢٠١٠٤٤٢٠٥٣٩

المبحث الأول

رحمته للفقراء

المطلب الأول : فضل محمدﷺ على الفقراء :

كان النبيﷺ رحمة حقيقة للفقراء ..

رحمة لهم كمشّرع، رحمة لهم كحاكم، ورحمة لهم كغني ، ورحمة لهم كنبي قبل كل شيء!

يقول المستشرق الإسباني جان ليك:

" وقد برهن [ﷺ] بنفسه على أن لديه أعظم الرحمات لكل ضعيف ، ولكل محتاج إلى المساعدة ، كان محمد [ﷺ] رحمة حقيقة لليتامى والفقراء وابن السبيل والمنكوبين والضعفاء والعمال وأصحاب الكد والعناء"[١].

وكان – كما تقول كوبولد –: "كريمًا بارًا كأنه الريح السارية، لا يقصده فقير أو بائس إلا تفضل عليه بما لديه، وما لديه كان في أكثر الأحايين قليلاً لا يكاد يكفيه"[٢].

"ومن يجهل أنه [ﷺ] لم يعدل، إلى آخر عمره، عما يفرضه فقر البادية على سكانها من طراز حياة وشظف عيش؟ وهو لم ينتحل أوضاع الأمراء قط مع ما ناله من غنى وجاه عريض.. وكان [ﷺ] حليمًا معتدلاً، وكان يأتي بالفقراء إلى بيته ليقاسمهم طعامه"[٣].

وذات مرة " أوحى الله تعالى إلى النبي [ﷺ] وحيًا شديد المؤاخذة لأنه أدار وجهه عن رجل فقير أعمى ليخاطب رجلاً غنيًا من ذوي النفوذ"[٤] .

ويلخص واشنجتون إيرفنج السلوك المالي للنبي ﷺ بقوله :

"كان الرسول [ﷺ] ينفق ما يحصل من جزية أو ما يقع في يديه من غنائم في سبيل انتصار الإسلام، وفي معاونة فقراء المسلمين، وكثيرًا ما كان ينفق في سبيل ذلك آخر درهم في بيت المال.. وهو لم يخلف وراءه دينارًا أو درهمًا أو رقيقًا.. وقد خيره الله بين مفاتيح كنوز الأرض في الدنيا وبين الآخرة فاختار الآخرة !"[٥].

وفي يوم ازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة، فانتزعت رداءه فقال : "أيها الناس، ردوا علي ردائي ! فو الذي نفسي بيده لو كان عندي عدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً "[٦].

---

[١] جان ليك : العرب ، ص ٤٣

[٢] اللادي ايفلين كوبولد: البحث عن الله ، ص٦٧

[٣] لويس سيديو : تاريخ العرب العام ، ص ١٠٣ .

[٤] لايتنر : دين الإسلام ،١٣٣ .

[٥] واشنجتون إيرفنج : حياة محمد ، ص٣٠٣

[٦] صحيح ـ صححه الألباني في تخريج كتاب فقه السيرة لمحمد الغزالي ص ٣٩٢.

ورد على هوازن سباياهم وكانت ستة آلاف، وأعطى العباس من الذهب ما لم يطق حمله!
وحُملت إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير !! فقام إليها يقسمها، فمارد سائلاً حتى فرغ منها[٧] !.
وأعطى صفوان بن أمية غنماً ملأت وادياً بين جبلين فقال صفوان: أرى محمداً ﷺ يعطى عطاء من لا يخشى الفقر !
وفي ذلك؛ نرى في شخص رسول الله ﷺ نموذج الحاكم المسلم العفيف، الذي يتعفف عن المغانم والأموال في سبيل سد أبواب الفقر في المجتمع الإسلامي، كما أنه ﷺ بهذا المسلك يكون قدوة وأسوة للأغنياء، فيكون محفزاً لهم على البذل والإنفاق فوق الزكاة المفروضة..

المطلب الثاني : نظام الزكاة – نموذجًا:

وفي نظام الزكاة رحمة عملية للفقراء ..
فالحكومة الإسلامية تحّصل زكاة المال من الأغنياء لتردها إلى فقراء الشعب..
فلما بَعث النبيُ ﷺ معاذَ بن جبل إلى اليمن ، أوصاه الرسول ﷺ قائلاً : " أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب"[٨] ..
وتعرف الزكاة بأنها الجزء المخصص للفقير والمحتاج من أموال الغنى . وتحسب الزكاة كنسبة 2.5% من المدخرات السنوية إذا تعدت قيمة معينة تعرف بالنصاب .
والزكاة مشتقة في اللغة العربية من زكا والتى تعنى النماء والطهارة والبركة. فإخراج الزكاة طهرة لأموال المسلم وقربة إلى الله تعالى يزداد بها ومجتمعه بركة وصلاحًا .
إذ ينظر الإسلام إلى مال المسلم الغني كأمانة استأمنه الله عليها ينبغي عليه أن يؤدى حقها ويستعملها فيما يرضى الله تعالى .

والزكاة في الإسلام هى أول نظام عرفته البشرية لتحقيق الرعاية للمحتاجين والعدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع حيث يعاد توزيع جزء من ثروات الأغنياء على الطبقات الفقيرة والمحتاجين .
وخول "الفقراء حق أخذها إذا امتنع الأغنياء من دفعها طوعاً"، كما بين "ليورودتن"[٩] .

---

[٧] انظر: ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج ٢ / ص ٤٢١، ٤٢٢.
[٨] صحيح - وهو في الإرواء، وصححه الألباني في تخريج مشكلة الفقر، ص ٣٦.
[٩] انظر: محمد شريف الشيباني: الرسول في الدراسات الإستشراقية المنصفة، ص١٧٦

وتؤدى الزكاة إلى زيادة تماسك المجتمع وتكافل أفراده والقضاء على الفقر وما يرتبط به من مشاكل اجتماعية واقتصادية وأخلاقية إذا أحسن استغلال أموال الزكاة وصرفها لمستحقيها .

وفي الزكاة يقول "ول ديورانت" :

".. لسنا نجد في التاريخ كله مصلحًا فرض على الأغنياء من (الضرائب)[١٠] ما فرضه عليهم محمد [ﷺ] لإعانة الفقراء.."[١١].

ويفصِّل "جاك ريسلر" القول في فضائل الزكاة فيقول :

"كانت الزكاة قبل كل شيء عملاً تعاونيًا حرًا وإداريًا ينظر إليه على أنه فضيلة كبرى. "وفي تنظيم جماعة (المدينة) اعتد النبي [ﷺ] هذا العمل الخير كضريبة شرعية إجبارية لصالح الفقراء والمعوزين. وسيتحول فيما بعد هذا النظام وسيتولد عنه هيئة من موظفين وبيت مال.. لكن إذا كانت الدولة قد صنعت هذا العمل الخيّر مصدرًا لمواردها، فإن مبدأ الزكاة ظل – بفضل القرآن – فضيلة مارسها المسلمون تلقائيًا بوصفه واجبًا دينيًا. وينبغي أن نزجي الثناء لمحمد [ﷺ] فقد كان أول من شرع ضريبة تجبى من الأغنياء للفقراء، هكذا أوجد القرآن الرحمة الإجبارية !" [١٢] .

وما أجمل ما قاله بنكمرت[١٣] في وصفه لنظام الزكاة، حين قال : "لم أجد دينًا وضع للزكاة تشريعًا شاملاً كالإسلام. والمجتمع الإسلامي الذي يحرص على إخراج الزكاة يخلو من الفقر والحرمان والتشرد.. إنني أتصور لو أن العالم كله اهتدى إلى الإسلام لما بقي على ظهر الأرض جائع أو محروم ! ! والمجتمع المسلم الذي يلتزم بأحكام الإسلام وآدابه مجتمع نظيف سعيد تنعدم فيه الجرائم بكافة ألوانها."[١٤]

من ناحية أخرى ، فقد حذر سيدنا محمد ﷺمن مغبة منع الزكاة وتوعد مانع الزكاة بالعذاب الشنيع يوم القيامة، فقال ﷺ

"من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع [نوع من الثعابين] له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه (يعني شدقيه) ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ".. ثم تلا النبي [ﷺ]﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ [آل عمران : الآية ١٨٠] "[١٥].

---

[١٠] الصحيح : الزكاة والصدقات

[١١] ول ديورانت : قصة الحضارة ، ١٣ / ٥٩.

[١٢] جاك ريسلر : الحضارة العربية، ص٤٣

[١٣] بريشا بنكمرت (عثمان عبد الله) : تربوي ، بمملكة تايلاند، نشأ في أسرة بوذية، راح يبحث، بعد إكمال دراسته، عن دين يجدر أن يكون "دين البشرية ودين الحياة"، كما يصفه، وفي مطلع عام ١٩٧١ أعلن إسلامه، وغير اسمه إلى عثمان عبد الله.

[١٤] انظر: عرفات كامل العشي : رجال ونساء أسلموا ، ٣ / ١١٥

[١٥] صحيح - أخرجه البخاري، برقم ١٣١٥، والنسائي برقم ٨٣٠٧ وأحمد، برقم ٨٣٠٧ عن أبي هريرة.

وقال مرغباً في فريضة الزكاة :"من أدى زكاة ماله فقد ذهب عنه شره"[١٦].

وقال ﷺ "ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان : من عبد الله وحده، وعلم أن لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه رافدة عليه كل عام و لم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا المريضة ولا الشرط اللئيمة ولكن من وسط أموالكم فإن الله لم يسألكم خيره و لم يأمركم بشره"[١٧].

وقالﷺ: "من أعطاها مؤتجرا فله أجرها ، ومن منعها فأنا آخذها وشطر ماله غرمة من غرمات ربنا . لايحل لآل محمد منها شيء"[١٨].

المطلب الثالث: دوره ﷺ في مكافحة البطالة :

أولاً : ترسيخ قيم العمل والانتاج :

لقد رسخ سيدنا محمد ﷺ في المجتمع بتعاليمه الغزيرة قيمًا اجتماعية وتنموية جليلة كالانتاجية والعمل.

فكرس في نفوس المسلمين بغض العطلة، وحب التكسب من عرق الجبين..

فكان رسول الله ﷺ يمقت أن يرى الرجل لا شغل له، وقد فضل ﷺ ثواب العامل من أجل لقمة العيش على العابد العاكف في المسجد، بل عد الساعي على إطعام بطنه وبطون أهله من الحلال كالخارج في سبيل الله . ونراه في أكثر من موضع يحبذ لكل مسلم فقير أن يحفظ ماء وجهه من سؤال الناس والأفضل له أن يخرج يتكسب من أي وسيلة مشروعة، ولو في جمع الحطب ..

فقال ﷺ – مشجعاً على العمل منفرًا من البطالة ـــ :"لأن يأخذ أحدكم أحبله، فيأتي بحزمة من حطب على ظهره؛ فيبيعها فيكف بها وجهه؛ خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه"[١٩].

قال العلامة القرضاوي :

"فبين الحديث أن مهنة الاحتطاب على ما فيها من مشقة، وما يحوطها من نظرات الازدراء، وما يرجى منها من ربح ضئيل، خير من البطالة وتكفف الناس"[٢٠] .

ثانيًا : قضاء حوائج العاطلين :

تجده ﷺ يفكر ويخطط لشاب فقير بحيث يوفر لهﷺ فرصة عمل يتكسب منها ..

---

[١٦] حسن لغيره - رواه الطبراني في الأوسط واللفظ له، وابن خزيمة في صحيحه والحاكم مختصرا: " إذا أديت زكاة مالك فقد أذهبت عنك شره " وقال صحيح على شرط مسلم، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، صحيح لغيره، برقم ٧٤٣.

[١٧] صحيح لغيره – رواه ابو داوود، برقم ١٣٤٩، والبيهقي في شعب الإيمان يرقم ٣١٤٨، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب :صحيح لغيره، برقم ٧٥٠

[١٨] حسن – رواه النسائي برقم ٢٤٠١، وأحمد برقم ١٩١٨٣، وحسنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر، برقم ٦٤.

[١٩] صحيح البخاري، رقم ١٩٣٣، وابن ماجه برقم ١٨٢٦

[٢٠] يوسف القرضاوي: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، ٤٠

فعن أنس بن مالك: أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺيسأله (الصدقة)، فقال " أما في بيتك شيء ؟ " قال: بلى ، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقعب نشرب فيه من الماء . قال " ائتني بهما " قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال " من يشتري هذين " ؟ قال: رجل أنا آخذهما بدرهم. قال :" من يزيد على درهم ؟ " مرتين أو ثلاثا . قال رجل :" أنا آخذهما بدرهمين ". فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري. وقال " اشتر بأحدهما طعامًا فانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدوما فأتني به " فأتاه به. فشد فيه رسول الله ﷺعودًا بيده ثم قال له: "اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يومًا " . فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبًا، وببعضها طعامًا . فقال رسول الله ﷺ: " هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة . إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة لذي فقر مدقع [الفقر الشديد] أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع "[٢١].

فانظر كيف خطط النبي ﷺلهذا الشاب ، بحيث يوفر له النبي ﷺفرصة عمل يتكسب منها.

ثالثًا: تحريمهﷺ البطالة :

هذا، ولقد حارب سيدنا محمد ﷺ كل مظاهر البطالة، والإخفاق عن التكسب، بشتى الطرق، ليسد كل باب أمام انتشار الفقر في المجتمع ..

فقلد حرم النبيﷺ البطالة مع القدرة على العمل، والحاجة إلى الكسب لقوته وقوت من يعوله، وفي هذا يقول النبي ﷺ : "إن الله يكره الرجل البطال"، " والبطالة تقسي القلب"[٢٢] .

رابعًا: ترغيبهﷺ في الزراعة :

ونراه يرغب في الزراعة في أحاديث مباركة ، مثل قوله :

"مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَزْرَعُ زَرْعًا أَوْ يَغْرِسُ غَرْسًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ"[٢٣].

خامسًا: ترغيبهﷺ في الصناعة :

ويرغب في الصناعة، فيقول:

" مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ- عَلَيْهِ السَّلَام -كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ"[٢٤].

سادسًا: ترغيبه ﷺفي التجارة :

ويرغب في التجارة، قائلاً:

---

[٢١] رواه أبو داود، برقم ١٣٩٨، وابن ماجه ٢١٨٩ ، وضعفه الألباني .

[٢٢] رواه القضاعي، في مسند الشهاب من حديث عبد الله بن عمرو، برقم ٢٧٨..

[٢٣] صحيح – رواه أحمد ١٢٠٣٨ عن أنس ، قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين

[٢٤] صحيح – رواه البخاري ١٩٣٠ عن الْمِقْدَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَاب كَسْبِ الرَّجُلِ وَعَمَلِهِ بِيَدِهِ.

" التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ"[٢٥].

وقد صنف الإمام البخاري باباً، تحت عنوان : بَاب الْخُرُوجِ فِي التِّجَارَةِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى" فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ " .

المبحث الثاني

رحمته للعبيد والخدم

تتمثل رحمتهﷺ للعبيد في عدة جوانب، أهمها أنه ساهم بشكل كبير تحرير العبيد، فضيق ﷺمصادر الاسترقاق ووسع منافذ التحرير، كما جعل للعبيد حقوقًا وواجبات وأمر بالرفق بهم وبالخدم، فهم على أقل الأحوال إخوننا في الإنسانية .

المطلب الأول : تحرير العبيد

لقد كانت دعوة النبيﷺ دعوة لحرية الإنسان ، والقضاء على العبودية ، فقرر الحرية الإنسانية وجعلها من دلائل تكريم الخالق للإنسان، ولذا رأيناهﷺ يول عناية خاصة لتحرير الأرقاء ، عن طريق إلغاء مصادر الرق أولاً ، و تشجيع المسلمين على تحرير عبيدهم، انطلاقاً من قاعدة أن من أعتق عبداً أعتق الله له بكل عضو عضواً من أعضائه من عذاب النار[٢٦].

ومن ثم نظم الإسلام أحكام الرق، بحيث تضيق في أسباب حدوث الرق، وتوسع في أساليب العتق، ولذلك – كما يقول إميل درمنغم : – "عُدّ فك الرقاب من الحسنات ومكفرًا لبعض السيئات"[٢٧] .

ويذكر آدم متز[٢٨] أهم أساليب العتق في الإسلام – مبيناً أن العتق يعد مبدأ من مبادىء الإسلام – ، فيقول : "كان في الإسلام مبدأ في مصلحة الرقيق، وذلك أن الواحد منهم كان يستطيع أن يشتري حريته بدفع قدر من المال، وقد كان للعبد أو الجارية الحق في أن يشتغل مستقلاً بالعمل الذي يريده.. وكذلك كان من البر والعادات المحمودة أن يوصي الإنسان قبل مماته بعتق بعض العبيد الذين يملكهم"[٢٩] .

---

[٢٥] حسن - رواه الترمذي عن أبي سعيد، برقم ١١٣٠ وحسنه . .

[٢٦] عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم – قال:" من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب منها إرباً منه من النار" (الإرب هو العضو)، صحيح مسلم، باب فضل العتق، حديث رقم ١٥٠٩

[٢٧] اميل درمنغم :حياة محمد، ٢٩٠

[٢٨] آدم متز (١٨٦٩-١٩١٧) : باحث ألماني، عين أستاذًا للغات السامية، في جامعة بازل بسويسرا، وقد تخصص بالأدب العربي في العصر العباسي. من آثاره: (نهضة الإسلام في القرن الرابع الهجري) (١٩٢٢)، وقد ترجم إلى العربية بعنوان: (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري).

[٢٩] ا آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ١ / ٢٩٠ .

وكان الرسول في مجتمعه الإسلامي إماماً في إقرار مبدأ تحرير العبيد ، حتى أن أسرى الحرب لم يعتبرهم عبيدًا ، وسمح لهم بدفع الفدية أو تعليم أبناء المسلمين لفك أسرهم[٣٠].
فلم يبق [ﷺ] أيما عبد على عبوديته . فما إن يؤول إليه عبد رقيق، حتى يسارع إلى إعتاقه[٣١].
بل رفع ﷺ من شأن العبيد حتى جعل النبيﷺ -كما يقول نظمي لوقا[٣٢] - "العبدان والأحابيش سواسية وملوك قريش !"[٣٣] .

ومن هنا وقفت قيادات قريش الأرستقراطية في وجه الدعوة التي ترنو إلى تحرير العبيد وتنادي بالمساواة التامة بينهم وبين السادة، ولقد كانت قيادات مكة تساوم قائد الدعوة على طرد هؤلاء العبيد مقابل إقرار قيادات مكة بالإسلام، ومن ثَم نزل القرآن الكريم محذرًا رسول الله أن يترك العبيد أو أن يطردهم، وهم الذي بذلوا الغالي والنفيس في سبيل الدعوة، ويدعون ربهم الواحد الأحد صباحًا ومساءً، يريدون ببذلهم وجه الله تعالى، لا يبتغون منصبًا أو جاهًا كما يبتغي غالبية السادة.. فقال الله تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً} [الكهف: ٢٨]، إن هؤلاء العبيد -في الشرع الإسلامي السمح- هم أعظم قيمة وأكثر بركة وأرق أفئدة وأطهر نفسًا، من هؤلاء السادة الذين يستعبدون الناس، ويتجبرون في الأرض بغير الحق.. هؤلاء العبيد نزل من أجلهم الأمر من السماء إلى رائد الدعوة ﷺ بأن يضعهم في عينيه! بل نزل التحذير من الله لرسوله ﷺ من أن يلتفت عن العبيد إلى زينة الكبراء، أو أن يتلهى عن العبد ويطيع السيد المارق.

أما العبيد فقد وجدوا الكرامة والحرية، في تعاليم الإسلام الإصلاحية، وفك رقابهم من طوق الفقر والذل، وخلصهم من عبادة الحجارة وسياط السادة. بل جعل منهم سادات المسلمين، حتى أُثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعليقًا على حادثة شراء أبو بكر لبلال بن رباح رضي الله عنهما ليعتقه من الرق فقال: "سيدنا وأعتق سيدنا!".

المطلب الثاني : فرية سن الإسترقاق:

ورغم جهود محمد ﷺ في تحرير العبيد إلا أن بعض الحاقدين زعموا أن محمداً ﷺ سن الاسترقاق!
ونحن نترك العلامة" لايتنر" يرد على هذه الفرية، فيقول:

---

[٣٠] انظر: محمد شريف الشيباني، الرسول في الدراسات الإستشراقية المنصفة، ١١٩
[٣١] مولانا محمد علي : نقلاً عن : محمد شريف الشيباني: الرسول في الدراسات الإستشراقية المنصفة، ١١٩
[٣٢] د. نظمي لوقا : كاتب نصراني من مصر. يتميز بنظرته الموضوعية .. كثيرًا ما كان يحضر مجالس شيوخ المسلمين ويستمع بشغف إلى كتاب الله وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم . بل إنه حفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز العاشرة من عمره. ألف عددًا من الكتب أبرزها (محمد الرسالة والرسول)، و(محمد في حياته الخاصة).
[٣٣] نظمي لوقا:محمد الرسالة والرسول، ص ١٨٥

".. إنا نرى الأغبياء من النصارى يؤاخذون دين الإسلام كأنه هو الذي قد سنّ الاسترقاق، مع أن محمدًا [ﷺ] قد حضّ على عتق الرقاب، وهذه أسمى واسطة لإبطاله حقيقة"[٣٤] ..

كذلك يتحدث الكاتب الفرنسي "فانسان مونتييه"[٣٥]، مستنكراً هذه الشبيهة على أصحابها، فيقول:

" إنهم يتهمون الإسلام بظاهرة الرَقّ التي وُجِدَتْ قبل الإسلام وليس بعده، بل حين انتشر الإسلام وطُبقت تعاليمه كان يسعى لإلغاء الرّق، بل إن كثيراً من الكفَّارات للذنوب التي يقدم عليها المرء هو تحرير الرقاب الذي عَدَّه الإسلام تقرباً وطاعة لله"[٣٦]..

ويتحدث كويليام[٣٧] عن هذه الرويات التي اختلقها الحاقدون، وزعموا أن محمداًﷺ، سن الإسترقاق والخناسة .. فيقول :

"إن روايات كهذه مجردة بالمرة عن الحقيقة، لا يمكن تصديقها وتصور وقوعها"[٣٨] .. ويدلل على حقيقة أن محمداً ﷺ له الفضل في القضاء على النخاسة في الجزيرة العربية، فيضرب مثالاً بمناطق شرق ووسط أفريقيا، التي تفشت فيها مظاهر النخاسة والاسترقاق، ويبين أن السبب في تفشي هذه المظاهر في هذه المناطق هو "لأن الإسلام لم يدخل فيها ! ! وبرهان ذلك أن الإسلام من خصائصه إبطال النخاسة إبطالاً دائمًا"[٣٩] ..

رغم أن تجار النخاسة والرق – كما يقول ادوار بروي – كانوا "من الأوربيين"٤٠ .. ومن ثم.. "توقفت حركة التطور في البلدان [الأفريقية] على أثر العبث الذريع الذي أحدثه في تلك الأرجاء تجار النخاسة والرق من الأوربيين "[٤١].

وإذا قيل: إن الإسلام لم يلغِ الرق والاتجار بالبشر إلغاءً كاملاً رغم عظم مجهودات نبي الإنسانية ﷺ في مكافحة الاسترقاق.. فجواب ذلك أن الدولة الإسلامية وحدها لا تستطيع أن تقضي تمامًا على عادة الاسترقاق والاتجار بالبشر، وذلك لعدة أساب وجيهة ومنطقية..

---

٣٤ لايتنر :دين الإسلام ، ص ٧ .

[٣٥] شغل منصب أستاذ اللغة العربية والتاريخ الإسلامي بجامعة باريس، وشغل منصب رئيس "مؤسسة الدراسات الإسلامية في "داكار"، وله عدة دراسات منها: كتاب "الإرهاب الصهيوني"، "والمسلمون في الاتحاد السوفيتي"، وكتاب "الإسلام في إفريقيا السوداء"، كما قد قام بترجمة ابن خلدون إلى الفرنسية.

[٣٦] انظر: عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا، ٢٣١

[٣٧] مفكر إنكليزي، ولد سنة ١٨٥٦، وأسلم سنة ١٨٨٧ ، وتلقب باسم : (الشيخ عبدالله كويليام، ومن آثاره : (العقيدة الإسلامية) (١٨٨٩) ، و (أحسن الأجوبة).

[٣٨] عبد الله كويليام : العقيدة الإسلامية ، ص٢٦

[٣٩] عبد الله كويليام العقيدة الإسلامية ، ص٢٦

[٤٠] ادوار بروي :تاريخ الحضارات العام ٣ / ٥٦٤

[٤١] ادوار بروي :تاريخ الحضارات العام ٣ / ٥٦٤

السبب الأول: أن مظاهر الاسترقاق والاتجار بالبشر كانت متأصلة ومنتشرة في المجتمعات الإنسانية، العربية وغير العربية، منذ قديم الزمن، فكان على الشرع الإسلامي -كعادته- أن يستخدم التدرج في القضاء على المنكرات والأعراف الفاسدة، فضيّق منافذ الاسترقاق ووسع أبواب العتق.

السبب الثاني: أن هذه العادات كانت قبل ظهور الإسلام بمثابة الأعراف الدولية، فقد كانت جميع الدول والإمبراطوريات -دون استثناء- تمارس الاسترقاق والاتجار بالبشر، ومن ثَم فإن القضاء على الرق يحتاج إلى اتفاق دولي عام، يلزم الجميع بمنع الاسترقاق أو الاتجار بالبشر.. ومعلوم أن الدولة الإسلامية أيام النبي ﷺ لم تكن من القوة والانتشار بالقدر الذي يسمح لها بمنع هذه العادات.

السبب الثالث: أن الناس كانوا حديثي عهد بالإسلام، وإذا أصدرت الدولة قرارًا بمنع الرق؛ فسوف يقع حرج شديد على هؤلاء الناس الذين أصبحت تجاراتهم وأعمالهم تقوم على كاهل هؤلاء العبيد.. فكان على النظام الإسلامي أن يأخذ بمبدأ التدرج في منع الاسترقاق والاتجار بالبشر.

السبب الرابع: أن الدولة الإسلامية لم تكن تمتلك من الإمكانيات الاقتصادية والمالية بحيث تتمكن من كفالة هؤلاء العبيد بعد تحريرهم، أو حتى توفير فرص عمل لهم جميعًا، فمن المعروف أن العبيد كانوا في كفالة أسيادهم، يطعمون من مال السادة، ويحترفون لهم في مهنهم..

المطلب الثالث : نماذج رحمته للعبيد :

إن المتأمل في التوجيهات النبوية يجدها تشي بالجهد الجهيد الذي بذله نبي الإنسانية في سبيل تحسين أوضاع العبيد والإماء ويعرف بحق كيف كانت مكرمة العبيد في الإسلام. وهذه بعض التوجيهات النبوية التي نذكر بعضًا منها على سبيل المثال لا الحصر.

أولاً : وصيته ﷺ بالعبيد والإماء :

كان آخر كلمات النبي ﷺ وهو يجود بروحه الشريفة، وقد حضره الموت، الوصية بالعبيد والإماء.. فعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: "الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم"[٤٢] !

إنه يوصي بالعبيد، وهو في سكرات الموت! فهو الذي احتضنهم حيًّا، وأوصى بهم بعد مماته خيرًا، فكان خير معلم لهم وخير أب وخير محرر .

ثانيًا: تحذيره ﷺ من إيذاء العبيد والإماء:

[٤٢] صحيح - رواه أبو داود (٢\ ٧٦١) برقم ٥١٥٦، وأحمد(١\٧٨)، برقم585 ، وصححه الألباني في الجامع الصغير(١\١١) برقم106

فكان يغضب أشد الغضب من ضرب العبيد أو إيذائهم، فعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، قال: كنت أضرب غلامًا لي؛ فسمعتُ مِنْ خَلْفِي صوتًا: "اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ.. لَلَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ"! فالتفتُ فإذا هو النبي! فقلت: يا رسول الله، هو حر لوجه الله تعالى. قَالَ: "أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ أَوْلَمَسَّتْكَ النَّارُ"[٤٣] .

كذا كان رسول الله يربي تلاميذه، ويفقه شعبه، على احترام آدمية الناس، وخاصة الضعفاء منهم والعبيد والخدم والأجراء.

ويمتد هذا النداء الأبوي إلى حكام المسلمين في كل زمان ومكان؛ فيلزمهم بحماية العبيد من التعذيب أو الاضطهاد، فضلاً عن السعي الجاد لتحريرهم.

ثالثًا: أمره ﷺ بالإحسان إلى العبيد

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ألطف الناس بالعبيد، وأرفق الناس بالإماء، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله من أشد الناس لطفًا! والله ما كان يمتنع في غداة باردة من عبد ولا من أمة ولا صبي أن يأتيه بالماء فيغسل وجهه وذراعيه!! وما سأله سائل قط إلا أصغى إليه أذنه فلم ينصرف حتى يكون هو الذي ينصرف عنه، وما تناول أحد بيده إلا ناوله إياها فلم يترع حتى يكون هو الذي يترعها منه[٤٤] .

وعن المعرور قال : لقيت أبا ذر بالربدة، وعليه حلة وعلى غلامه حله [يعني من نفس الثوب]فسألته عن ذلك . فقال : إني سابيت رجلاً، فعيرته بأمه[قال لبلال : يابن السوداء]فقال لي النبي ﷺ: "يا أبا ذر ! أعيرته بأمه ! ؟ إنك امروء فيك جاهلية ! إخوانكم خولكم [العبيد والإماء والخدم والأسرى هم إخوانكم في الدين والإنسانية]، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده: فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم "[٤٥] .

فحرم السخرية من العبيد أو الاستهزاء بألوانهم أو أنسابهم، كما حرم إجهاد العبد في الخدمة، وأوجب مساعدته إذا كُلّف ما يغلبه.. وحذر الفقهاء من استعمال العبيد على الدوام ليل نهار، فقالوا: إذا استعمل السيدُ العبدَ نهارًا أراحه ليلاً، وكذا بالعكس، وقالوا: يريحه بالصّيف في وقت القيلولة،

---

[٤٣] صحيح - سنن أبي داود، برقم (٤٤٩٢)، باب حق المملوك، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود، برقم ٥١٥٩.

[٤٤] رواه أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة (١١٦)، وأبو حنيفة في مسنده (٤٠)، والحارث في مسنده (٩٣٩)، وذكره ابن حجر العسقلاني في المطالب العالية (٣٩٣١). ولم أقف على سنده .

[٤٥] صحيح – رواه البخاري،كتاب الإيمان، برقم ٣٠، وأخرجه مسلم في الإيمان والنذور، باب: إطعام المملوك مما يأكل، رقم: ١٦٦١

ويمنحه قسطه من النّوم، وفرصة للصّلاة المفروضة. وإذا سافر به يجب عليه أن يحمله معه على الدابة أو يتعاقبان على البعير ونحوه.

بل قالوا: "إن كان العبد ذمّيًّا فقد ذكر بعض الفقهاء أنه لا يمنع من إتيان الكنيسة، أو شرب الخمر، أو أكل لحم الخنزير؛ لأن ذلك دينه، نقله البنانيّ عن قول مالكٍ في المدوّنة"[٤٦]

وتأمل معي قول النبي صلى الله عليه وسلم لمن عيّر العبد: "إنك امرؤ فيك جاهلية".. دلالة على أن صفة من يهينون العبيد ويؤذونهم بالقول أو الفعل، فوصفهم بالجهل، وربطهم بعصور الجاهلية، وعهود التخلف.

رابعًا: التعاون في تحرير العبيد :

شغل الرقُ سلمانَ الفارسي حينًا من الزمن .. فقد كان مولى عند أحد الوجهاء، حتي فات سلمان عدد من المشاهد مع الرسول الكريم ﷺ، منها بدر وأحد.

فذهب إلى النبيﷺ

فأشار عليه النبي ﷺ أن يكاتب سيده، فكاتبه علي ثلاثمائة نخلة يغرسها له وأربعين أوقية من ذهب.

وشارك المسلمون في أداء هذا الدين عن سلمان، فأحضروا له النخل وحفروا معه أماكنها وقدم رسول الله ﷺ ووضعه بيده الشريفة وعُتق سلمان.

وكانت أول مشاهده غزوة الأحزاب، وكان هو صاحب فكرة إنشاء خندق عظيم حول المدينة لتحصينها من الغزاة .. ولما نجحت الفكرة، زاد تقدير الناس لسلمان نظرًا لرجاحة عقله، وجهده في خدمة دولة الإسلام بفكرة الخندق، فقال الأنصار : سلمان منا ! وقال المهاجرون: سلمان منا !

فقال النبيﷺ : "سلمان منا أهل البيت !!"[٤٧].

وهكذا ارتفع شأن العبيد في دولة الإسلام بجهدهم وخدمتهم للمجتمع، و لم تكن عبوديتهم أيما يوم من الأيام تشينهم بين إخوانهم المسلمين.وفي ذلك أيضًا النموذج العملي الذي حشد فيه النبي ﷺ جهود شعبه من أجل تحرير عبد. وهو بذلك يلزم المجتمع بضرورة تضافر الجهود الشعبية لفك الإنسان من الرق .

خامسًا: سن قاعدة : "كفارة ضرب العبد عتقه":

---

[٤٦] عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت، باب "رقّ"

[٤٧] رواه الحاكم في المستدرك، برقم ٦٥٤١، والطبراني في المعجم الكبير، برقم ٦٠٤٠، والقصة منتشرة في كتب السيرة، في ثنايا أحداث الخندق .

شرع الإسلام منفذًا لتحرير العبيد عن طريق سن قاعدة "كفارة ضرب العبد عتقه" والذي لم يكن موجودًا أيام الجاهلية، فمنح حق الحرية للعبد إذا ضربه سيده.

فعن أبي صالح ذَكْوَانَ عن زَاذَانَ قال: أتيتُ ابن عمر، وقد أعتق مملوكًا له، فأخذ من الأرض عودًا أو شيئًا، فقال: مالي فيه من الأجر مَا يَسْوَى هذا.. سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "مَنْ لَطَمَ مَمْلُوكَهُ أو ضَرَبَهُ فَكَفَّارَتُهُ أَنْ يُعْتِقَهُ"[٤٨].

سادسًا: كفالة الدولة الإسلامية للعبد المعاق أو المريض:

فلقد كان لِزِنْبَاعٍ أبو روح رضي الله عنه -أحد الصحابة- عَبْدٌ يُسَمَّى سَنْدَرَ بْنَ سَنْدَرٍ، فوجده يقبل جارية له، فقطع ذَكَرَهُ وَجَدَعَ أَنْفَهُ، فأَتَى الْعَبْدُ النبي ﷺ فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لزنباع: "مَا حَمَلَك عَلَى مَا فَعَلْت؟" قَالَ: فَعَلَ كَذَا وَكَذَا. فذكر له ما فعل بالجارية!.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم للعبد: "اذْهَبْ فَأَنْتَ حُرٌّ" فقال العبد: يا رسول الله فمولى من أنا؟ فقال: "مولى الله ورسوله".. فأوصى به المسلمين؛ فلما قُبض جاء العبد إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال: وصية رسول الله ﷺ ، فقال: نعم، تجري عليك النفقة وعلى عيالك، فأجراها عليه حتى قبض.. فلما استخلف عمر رضي الله عنه جاءه فقال: وصية رسول الله ﷺ قال: نعم، أين تريد؟ قال: مصر، قال: فكتب عمر إلى صاحب مصر أن يعطيه أرضًا يأكل منها"[٤٩] .

فالدولة -في الشرع الإسلامي- تكفل أصحاب الإعاقات من العبيد، -كما رأيت- كالمواطنين الأحرار، وقرر لهم الراتب المالي الدوري الذي يغنيهم عن التسول أو سؤال الناس.

المطلب الرابع: تحريم الاتجار بالبشر

ومن دلائل مكافحة الاسترقاق في الشرع الإسلامي، تحريمه لكافة صور ومظاهر الاتجار بالبشر، وخاصة النساء والأطفال الأحرار.. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "قَالَ اللَّهُ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ"[٥٠]

---

[٤٨] صحيح - سنن أبي داود ، برقم٤٥٠٠ ، وصححه الألباني صحيح الترغيب والترهيب، برقم ٢٢٧٨

[٤٩] حسن – رواه أحمد (٢ / ١٨٢)، وأخرجه أبو داود (٤٥١٩) وابن ماجه (٢٦٨٠)، وحسن الألباني في الإرواء ١٧٤٤

[٥٠] صحيح - رواه البخاري، كتاب البيوع ، باب إثم من باع حرًا، ح: ٢٠٧٥

فجعل الاتجار بالبشر من أبواب الخيانة والغدر والظلم، والله عز وجل خصم لجميع الغادرين إلا أنه أراد التشديد على هذه الأصناف الثلاثة، فقد ارتكبوا جرمًا شنيعًا يتعلق بحقوق الإنسان، فأحدهم غدر بأخيه الإنسان، فعاهده عهدًا وحلف عليه بالله ثم نقضه، والثاني باع أخاه الإنسان الحر، والثالث أكل مال أخيه الإنسان الأجير، وهو داخل في إثم المتاجرة بالبشر كالثاني؛ لأنه استخدمه بغير حق، وخالف الأمر النبوي: "أَعْطِ الْأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ"[٥١]

وجريمة الاتجار بالبشر -التي حرمها الشرع الإسلامي الفضيل- تتسربل بصور عديدة مارستها المجتمعات الجاهلية في القديم والحديث.. فمارستها قبائل العرب ودول الفرس والرومان قبل بعثة النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم، فكانوا يقطعون الطرق على الأحرار، فيسرقون أموالهم ويبيعونهم في أسواق النخاسة على أنهم عبيد.. وفي العصر الحديث مارس الأمريكان هذا السلوك الجاهلي مع الزنوج، فخصصوا الهيئات التي تبيع وتشتري فيهم، وهم أحرار، ومارسوا أبشع صور التمييز العنصري في حقهم. إضافة إلى ظهور جماعات المتاجرة بالأطفال والنساء؛ لغرض الاستغلال الجنسي التجاري، ناهيك عن استغلال هذه الجماعات للكوارث الطبيعية والحروب لممارسة نشاطها، وخير شاهد ما حدث في كارثة تسونامي وما أعلنته الصحف عن أرقام مفزعة للنساء والأطفال الذين تم الاتجار بهم في ظل هذه الكارثية الإنسانية، الأمر نفسه حدث مع ضحايا الشعب المسلم في البوسنة والهرسك بعد ما أعمل فيه الجيش الصربي الذبح، فتم بيع آلاف الفتيات والأطفال على مرأى ومسمع من العالم (المتحضر).. وتحولت البلدان الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية إلى مراكز كبرى للاتجار بالبشر من جانب العصابات المنظمة التي تحصد سنويًّا ما بين ٨ و١٠ مليارات دولار من الاتجار بالأطفال والنساء، وذلك وفقًا لإحصائيات وزارة العدل الأمريكية... بيد أن الشرع الإسلامي الكريم حرّم بيع الأحرار، وناهض تجارة البشر بالبشر، وحرم إكراه الفتيات على ممارسة البغاء فقال الشارع الحكيم: "وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [النور: ٣٣].

إلى جانب أن جريمة الاتجار بالبشر تنتهك حق الإنسان في الحرية، وتنتهك حقوق الأطفال والنساء في العيش في بيئة آمنة صالحة، فهي تنزعهم من أسرهم ومن بين آبائهم وأمهاتهم إلى جحيم الاستغلال الجنسي والسخرة والتعذيب النفسي والجسدي.. وكلها مظاهر حرمها الإسلام وحاربها نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم.

---

[٥١] حسن – رواه البيهقي، ح: (١١٤٣٩)، عن أبي هريرة. وحسنه الألباني

هكذا كان المنهج النبوي في التعامل مع مظاهر الاسترقاق والاتجار بالبشر؛ ليسجل أمام الله تعالى ثم التاريخ أن النظام الإسلامي هو أول نظام في تاريخ البشرية ناهض الاسترقاق وحارب المتاجرة بالبشر

المطلب الخامس – رفقه وعطفه على الخدم

أولاً: سلوكه ﷺ مع خادمه :

خادمه أنس رضي الله عنه يحدثنا عن رحمته وشفقته ﷺ بالخدم..

وإن شهادة الخادم عن سيده لصادقة، وخاصة من رجل كأنس الذي خدمه تسع سنين، ونقل عنه إلى الأُمة آلاف الأحاديث، وكان معه كظله..

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ. قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺأَحْسَنَ النّاسِ خُلُقاً. فَأَرْسَلَنِي يَوْماً لِحَاجَةٍ.

فَقُلْتُ: وَاللّهِ لاَ أَذْهَبُ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيّ اللّهِ ﷺ، فَخَرَجْتُ حَتّىَ أَمُـرّ عَلَـىَ صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ:" يَا أُنَيْسُ أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟" قُلْتُ: نَعَمْ ! أَنَا أَذْهَب يَا رَسُولَ اللّهِ. قَالَ أَنَـسٌ: وَاللّهِ لَقَدْ خَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ، مَا عَلِمْتُهُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ أَوْ لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: هَلاّ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا [٥٢]..

وإذا لام أحدٌ الخادم لتقصيره في خدمة سيدنا محمدﷺ ، قال ﷺ : "دعوه ! فلـو قُـدر أن يكـون كان!"[٥٣].

ثانيًا: حثه على العفو عن الخادم :

كان سيدنا محمد ﷺ يوصي أصحابه بالعفو عن الخدم ..فعن عبد الله بن عمر قال: جاء رجـل إلى النبي ﷺفقال: يا رسول الله كم نعفو عن الخادم؟ فصمت، ثم أعاد عليه الكلام فصمت. فلما كان في الثالثة قال: "اعفوا عنه في كلِّ يومٍ سبعين مرَّةً "[٥٤].

ثالثًا: توبيخه مَنْ ضرب الخادم:

كان لدى بني مقرّن خادمة، فلطمها أحدهم، فجاءت تشتكي إلى رسول الله ﷺباكية، فاسـتدعى الرسول ﷺ مالكها قائلاً له: "أَعتِقوها"، فقالوا: ليس لهم خادم غيرها. قال: "فليستخدموها، فـإذا استغنوا عنها، فليخلّوا سبيلها[٥٥] .

وعن عائشة قالت : ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خادما ولا امرأة قط[٥٦]

---

[٥٢] صحيح – رواه مسلم في فضائل النبي صلى الله عليه وسلم باب حسن خلقه، رقم ٢٣١٠

[٥٣] صحيح - رواه أحمد، وصححه الألباني في ظلال الجنة ، برقم ٣٥٥

[٥٤] رواه أبو داود، باب في حق المملوك، برقم ٤٤٩٦.

[٥٥] صحيح – رواه مسلم ، كتاب الأيمان - باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده

[٥٦] صحيح - سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في التجاوز في الأمر، ح: (٤١٥٤)، وابن ماجة، كتاب النكاح، باب ضرب النساء، ح: (١٩٧٤)، وقال الألباني : صحيح ، انظر مختصر الشمائل المحمدية، ص ١٨٢

رابعًا: ترغيبه ﷺفي إطعام الخادم :

فعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ قَالَ

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَا أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ زَوْجَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ"[٥٧].

خامسًا: نهيه عن الدعاء على الخادم :

فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى خَدَمِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تُوَافِقُوا مِنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَاعَةَ نَيْلٍ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ"[٥٨].

المبحث الثالث

رحمته بذوي الاحتياجات الخاصة

أخيرًا التفت العالم المتحضر في هذا القرن إلى ذوي الاحتياجات الخاصة !! بعدما نحى جانبًا نظريات عنصرية، فاسدة، تدعو إلى إهمالهم ، بزعم أن هؤلاء – أمثال الصم والبكم والعمي والمعاقين ذهنيًا– لا فائدة منهم ترتجى للمجتمع .. ولقد قدرت منظمة العمل الدولية في تقرير لها عام (٢٠٠٠م) عدد ذوي الاحتياجات الخاصة بأكثر من (٦١٠) مليون نسمة ، منهم (٤٠٠) مليون نسمة في الدول النامية، وفي تقرير للبنك الدولي، تمثل هذه الفئة ١٥ % تقريبًا من نسبة السكان في كل دولة من دول العالم .

المطلب الأول : الفئات الخاصة في المجتمعات الجاهلية:

وإذا نظرنا – سريعًا- إلى تاريخ الغرب مع ذوي الاحتياجات الخاصة، نجد مجتمعات أوربا القديمة، كروما وإسبرطا شهدت إهمالاً وإضهادًا صارخًا لهذه الفئة من البشر، فلقد كانت هذه المجتمعات – حكامًا وشعوبًا – تقضي بإهمال أصحاب الإعاقات، وإعدام الأطفال المعاقين عقب ولادتهم، أو تركهم في الصحراء طعاماً للسباع والطيور..

وكانت المعتقدات الخاطئة والخرافات هي السبب الرئيسي في هذه الانتكاسة، فكانوا يعتقدون أن المعاقين عقليًّا هم أفراد تقمصتهم الشياطين والأرواح الشريرة. وتبنّى الفلاسفة والعلماء الغربيون

---

[٥٧] رواه أحمد، برقم ١٦٥٥٠، والنسائي٥\٣٨٢ برقم٩٢٠٤، قال ابن كثير : إسناده صحيح ولله الحمد (التفسير ٢٦٤/٢)

[٥٨] صحيح – رواه داود برقم ١٣٠٩، كتاب الصلاة، بَاب النَّهْيِ عَنْ أَنْ يَدْعُوَ الْإِنْسَانُ عَلَى أَهْلِهِ وَمَالِهِ، وهو في صحيح الترغيب والترهيب ٢\ ١٣٣

هذه الخرافات، فكانت قوانين (ليكورجوس) الإسبرطي و(سولون) الأثيني تسمح بالتخلص ممن بهم إعاقة تمنعه عن العمل والحرب، وجاء الفيلسوف الشهير (أفلاطون) وأعلن أن ذوي الاحتياجات الخاصة فئة خبيثة وتشكل عبئًا على المجتمع، وتضر بفكرة الجمهورية.. أما (هيربرت سبنسر) فقد طالب المجتمع بمنع شتى صور المساعدة لذوي الاحتياجات الخاصة، بزعم أن هذه الفئة تثقل كاهل المجتمع بكثير من الأعباء دون فائدة.

بيد أن العرب –وإن كانوا يقتلون البنات خشية العار– كانوا أخف وطأة وأكثر شفقة على أهل البلوى والزمنى، وإن كانوا يتعففون عن مؤاكلة ذوي الاحتياجات الخاصة أو الجلوس معهم على مائدة طعام.

وفي الوقت الذي تخبط فيه العالم بين نظريات نادت بإعدام المتخلفين عقليًّا وأخرى نادت باستعمالهم في أعمال السخرة اهتدى الشرق والغرب أخيرًا إلى "فكرة" الرعاية المتكاملة لذوي الاحتياجات الخاصة.. في ظل هذا كله نرى رسولنا المربي المعلم صلى الله عليه وسلم كيف كانت رحمته لهذه الفئة من بني البشر، وهذا غيض من فيض رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو رعاية ذوي الاحتياجات الخاصة.

المطلب الثاني : رعاية النبي ﷺ لذوي الاحتياجات الخاصة:

فعن أنس أن امرأة كان في عقلها شيىء ، فقالت : يا رسول الله إن لي إليك حاجة ! فَقَالَ: فَقَالَ: " يَا أُمّ فُلاَنٍ! انظري أَيّ السّكَكِ شِئْتِ، حَتّىَ أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ " فَخَلاَ مَعَهَا فِي بَعْضِ الطّرُقِ، حَتّىَ فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا[٥٩].

وهذا من حلمه وتواضعه ﷺ وصبره على قضاء حوائج ذوي الاحتياجات الخاصة ..

وفي هذا أيضاً : " بيان بروزه ﷺ للناس وقربه منهم ليصل أهل الحقوق إلى حقوقهم ويرشد مسترشدهم ليشاهدوا أفعاله وحركاته فيقتدي بها وهكذا ينبغي لولاة الأمور وفيها صبره ﷺ على المشقة في نفسه لمصلحة المسلمين واجابته من سأله حاجة"[٦٠].

وفي هذا دلالة شرعية على وجوب تكفل الحاكم برعاية ذوي الاحتياجات الخاصة، صحيًا واجتماعيًا، واقتصاديًا، ونفسيًا، والعمل على قضاء حوائجهم، وسد احتياجاتهم .

ومن صور هذه الرعاية لذوي الاحتياجات الخاصة :

---

[٥٩] صحيح – رواه مسلم برقم ٤٢٩٣

[٦٠] شرح النووي على مسلم (١٥ \ ٨٢)

-توفير الحياة الكريمة لهم

- العلاج والكشف الدوري لهم

- تأهيلهم وتعليمهم بالقدر الذي تسمح به قدراتهم ومستوياتهم

- توظيف مَن يقوم على رعايتهم وخدمتهم .

ولقد استجاب الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز – رضي الله عنه – ، لهذا المنهج النبوي السمح، فأصدر قرارًا إلى الولايات:

"أن ارفعوا إليَّ كُلَّ أعمى في الديوان أو مُقعَد أو مَن به فالج أو مَن به زمانة تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة. فرفعوا إليه " وأمر لكل كفيف بموظف يقوده ويرعاه ، وأمر لكل اثنين من الزمنى – من ذوي الاحتياجات – بخادمٍ يخدمه ويرعاه[٦١] .

وعلى نفس الدرب سار الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك – رحمه الله تعالى –، فهو صاحب فكرة إنشاء معاهد أو مراكز رعاية – لذوي الاحتياجات الخاصة ، فأنشأ [عام 707م- ٨٨ هـ]مؤسسة متخصصة في رعايتهم، وظّف فيها الأطباء والخدام وأجرى لهم الرواتب، ومنح راتبًا دوريًا لذوي الاحتياجات الخاصة ، وقال لهم : " لا تسألوا الناس " ، وبذلك أغناهم عن سؤال الناس ، وعين موظفًا لخدمة كل مقعد أو كسيح أو ضرير[٦٢].

المطلب الثالث: الأولوية لهم في الرعاية وقضاء احتياجاتهم:

وإذا كان الإسلام قد قرر الرعاية الكاملة لذوي الاحتياجات الخاصة، والعمل على قضاء حوائجهم، فقد قرر أيضًا أولوية هذه الفئة في التمتع بكافة هذه الحقوق، فقضاء حوائجهم مقدم على قضاء حوائج الأصحاء، ورعايتهم مقدمة على رعاية الإكفاء ، ففي حادثة مشهورة أن سيدنا محمد ﷺ عبس في وجه رجل أعمى – هو الصحابي الفاضل عبد الله ابن أم مكتوم - جاءه يسأله عن أمرٍ من أمور الشرع، وكان يجلس إلى رجالٍ من الوجهاء وعلية القوم، يستميلهم إلى الإسلام، و رغم أن الأعمى لم ير عبوسه، و لم يفطن إليه، إلا أن المولى تبارك وتعالى أبى إلا أن يضع الأمور في نصابها، والأولويات في محلها، فأنزل - سبحانه آيات بينات تعاتب النبي الرحيم عتاباً شديداً:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاء ذَكَرَهُ] [عبس: الآيات ١-١٢]

---

[٦١] انظر: ابن الجوزي: سيرة عمر بن عبدالعزيز ، ١٣٠

[٦٢] انظر: ابن كثير : البداية والنهاية، ٩/ ١٨٦، وتاريخ الطبري ٥/ ٢٦٥

يقول الباحث الإنجليزي "لايتنر " معلقًا على هذا الحادث :

".. مرة، أوحى الله تعالى إلى النبي [ﷺ] وحيًا شديد المؤاخذة لأنه أدار وجهه عن رجل فقير أعمى ليخاطب رجلاً غنيًا من ذوي النفوذ، وقد نشر ذاك الوحي، فلو كان [ﷺ] كما يقول أغبياء النصارى بحقه [ﷺ] لما كان لذاك الوحي من وجود !"[٦٣].

وقد كان النبي ﷺ يقابل هذا الرجل الأعمى، فيهش له ويبش، ويبسط له الفراش، ويقول له:

" مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي "[٦٤] !

ففي هذه القصة، نرى علة المعاتبة، لكونه ﷺ انشغل بدعوة الوجهاء عن قضاء حاجة هذا الكفيف، وكان الأولى أن تُقضى حاجته، وتقدم على حاجات من سواه من الناس .

وفي هذه القصة دلالة شرعية على تقديم حاجات ذوي الاحتياجات الخاصة على حاجات من سواهم.

المطلب الرابع: عفوه ﷺ عن سفهائهم وجهلائهم :

وتجلت رحمة الحبيب ﷺ بذوي الاحتياجات الخاصة، في عفوه عن جاهلهم، وحلمه على سفيههم ، ففي معركة أحد[شوال ٣هـ- أبريل٦٢٤ م]، لما توجه الرسول ﷺ بجيشه صوب أحد، وعزم على المرور بمزرعة لرجل منافق ضرير، أخذ هذا الأخير يسب النبيﷺ وينال منه ، وأخذ في يده حفنة من تراب وقال – في وقاحة – للنبيﷺ: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك لرميتك بها ! حَتَّى هم أصحاب النبي بقتل هذا الأعمى المجرم، فأبى عليهم -نبي الرحمة- وقال:

" دعوه ! فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصر "[٦٥].

ولم ينتهز رسول الله ﷺ ضعف هذا الضرير، فلم يأمر بقتله أو حتى بأذيته، رغم أن الجيش الإسلامي في طريقه لقتال، والوضع متأزم، والأعصاب متوترة، ومع ذلك لما وقف هذا الضرير المنافق في طريق الجيش، وقال ما قال، وفعل وما فعل، أبى رسول الله إلا العفو عنه، والصفح له، فليس من شيم المقاتلين المسلمين الاعتداء على أصحاب العاهات أو النيل من أصحاب الإعاقات، بل كانت سنته معهم؛ الرفق بهم، والاتعاظ بحالهم، وسؤال الله أن يشفيهم ويعافينا مما ابتلاهم .

المطلب الخامس : تكريمه وموساته ﷺ لهم :

---

[٦٣] لايتنر : دين الإسلام ، ص ١٢ – ١٣ .

[٦٤] تفسير القرطبي ١٩/ ١٨٤، والبيضاوي ٤٥١

[٦٥] ابن كثير : السيرة النبوية (ج ٢ / ص ٣٤٧)

فعن عائشة أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إن الله عز وجل أوحى إلى أنه من سلك مسلكا في طلب العلم سهلت له طريق الجنة ومن سلبت كريمتيه أثبته عليهما الجنة... "[٦٦] .

وعن العرباض بن سارية ، عن النبي ﷺ ، عن رب العزة – قال : " إذا سلبت من عبدي كريمتيه وهو بهما ضنين ، لم أرض له ثوابًا دون الجنة، إذا حمدني عليهما"[٦٧]

ويقول النبيﷺ لكل أصحاب الإصابات والإعاقات : " مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ"[٦٨]

ففي مثل هذه النصوص النبوية والأحاديث القدسية، مواساة وبشارة لكل صاحب إعاقة؛ أن إذا صبر على مصيبته، راضيًا لله ببلوته، واحتسب على الله إعاقته، فلا جزاء له عند الله إلا الجنة .

وقد كان النبي ﷺ يقول عن عمرو بن الجموح ، تكريمًا وتشريفًا له: " سيدكم الأبيض الجعد عمرو بن الجموح "وكان أعرج ، وقد قال له النبي ﷺ ذات يوم: " كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة "، وكان – رضي الله عنه – يولم على رسول الله ﷺ إذا تزوج[٦٩] .

و عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ استخلف بن أم مكتوم على المدينة مرتين يصلي بهم وهو أعمى[٧٠] .

وعن عائشة أن ابن أم مكتوم كان مؤذنا لرسول الله ﷺ وهو أعمى[٧١] .

وروى الزهري عن سعيد بن المسيب أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم، وكانوا يسلمون إليهم مفاتيح أبوابهم، ويقولون لهم: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا[٧٢] .

وعن الحسن بن محمد قال: دخلت على أبي زيد الأنصاري فأذن وأقام وهو جالس قال: وتقدم رجل فصلى بنا، وكان أعرج أصيب رجله في سبيل الله تعالى[٧٣].

وهكذا كان المجتمع النبوي، يتضافر في مواساة ذوي الاحتياجات الخاصة، ويتعاون في تكريمهم، ويتحد في تشريفهم، وكل ذلك اقتضاءً بمنهج نبي الرحمة ﷺ مع ذوي الاحتياجات الخاصة . .

المطلب السادس : زيارته ﷺ لهم

---

[٦٦] صحيح - رواه البيهقي في شعب الإيمان ، وصححه الألباني في المشكاة(ج ١ / ص ٥٥)، برقم ٢٥٥

[٦٧] صحيح – رواه ابن حبان ح: ٢٩٩٣

[٦٨] صحيح – رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، ح: ٤٦٦٤

[٦٩] أبو نعيم الأصبهاني، معرفة الصحابة ١٤ / ١٥٥

[٧٠] صحيح – رواه أحمد ، ح: ١٣٠٢٣، وصححه الألباني في الإرواء ح: ٥٣٠

[٧١] صحيح – رواه مسلم، كِتَاب الصَّلَاةِ، بَاب جَوَازِ أَذَانِ الْأَعْمَى إِذَا كَانَ مَعَهُ بَصِيرٌ، ح: ٣٨١

[٧٢] تفسير الرازي، ج ١١ / ص ٣٧٤.

[٧٣] رواه البيهقي (١ / ٣٩٢)، وقال الألباني : وهذا إسناد حسن إن شاء الله تعالى

وشرع الإسلام عيادة المرضى عامة، وأصحاب الإعاقات خاصة، وذلك للتخفيف من معاناتهم .. فالشخص المعاق أقرب إلى الإنطواء والعزلة والنظرة التشائمية، وأقرب من الأمراض النفسية مقارنة بالصحيح، ومن الخطأ إهمال المعاقين في المناسابات الاجتماعية، كالزيارات والزواج ..

وقد كان رسول الله ﷺ يعود المرضى، فيدعو لهم ، ويطيب خاطرهم، ويبث في نفوسهم الثقة، وينشر على قلوبهم الفرح، ويرسم على وجوهه البهجة، وتجده ذات مرة يذهب إلى أحدهم في أطراف المدينة، خصيصًا، ليقضي له حاجة بسيطة، أو أن يصلي ركعات في بيت المتبتلى تلبية لرغبته .. فهذا عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ- وكان رجلاً كفيفًا من الأنصار- يقول للنبي ﷺ: إنها تكون الظلمة والسيل وأنا رجل ضرير البصر، وأنا أصلي لقومي فإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم؛ لم أستطع أن آتي مسجدهم فأصلي بهم، ووددتُ يا رسول الله أنك تأتيني فتصلي في بيتي فأتخذه مصلى. فوعده ﷺ بزيارة وصلاة في بيته قائلا : "سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ" ..

قال عتبان فغدا رسول الله ﷺ وأبو بكر حين ارتفع النهار فاستأذن رسول الله ﷺ فأذنتُ له فلم يجلس حتى دخل البيت ، ثم قال : "أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ"، فأشرتُ له إلى ناحية من البيت فقام رسول الله ﷺ ،فكبر فقمنا، فصفنا، فصلى ركعتين، ثم سلم [٧٤].

المطلب السابع: الدعاء لهم :

وتتجلى – أيضًا – رحمة نبي الإسلام ﷺ بالفئات الخاصة – من ذوي الاحتياجات- عندما شرع الدعاء لهم، تثبيتًا لهم، وتحميسًا لهم على تحمل البلاء .. ليصنع الإرادة في نفوسهم، ويبني العزم في وجدانهم .. فذات مرة ، جاء رجل ضرير البصرِ إلى حضرة النبي ﷺ.. فقَالَ الضرير: ادعُ اللَّهَ أنْ يُعافيني..

قَالَ ﷺ: "إنْ شِئتَ دَعوتُ، وإنْ شِئتَ صبرتَ فهوَ خيرٌ لك".

قَالَ: فادعُهْ.

فأمرَهُ أنْ يتوضَّأ فيُحسنَ وُضُوءَهُ ويدعو بِهَذَا الدُّعاءِ:

" اللَّهُمَّ إِنِّي أسألكَ وأتوجَّهُ إليكَ بنبيِّكَ مُحَمَّد **نبيِّ الرَّحمةِ** إِنِّي توجَّهتُ بكَ إِلى رَبِّي في حاجتي هذِهِ لتُقْضَى لي، اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فيَّ "[٧٥] .

وعن عطاء بن أبي رباح، قال لِي ابْنُ عَبَّاس: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ : بَلَى .

قَالَ : هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ .. أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي !

فقَال النبيَ ﷺ:" إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ".

---

[٧٤] صحيح البخاري، كتاب الصلاة باب المساجد في البيوت ، ح: (٤٠٧)، وانظر: ح (٦٢٧)، ومسلم ، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر، ح: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ح: (١٠٥٢)

٧٥ صحيح – رواه الترمذي (وشرح العلل)، أبواب الدعوات عَن رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، ٣٥٧٨، وابن ماجه برقم ١٣٨٥، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي.

فَقَالَتْ :أَصْبِرُ . فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ. فَدَعَا لَهَاﷺ [٧٦].

هذا، وقد كان رسول الله يدعو للمرضى والزمنى عامة، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتى مريضا أو أتي به قال : " أذهب الباس رب الناس اشف وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما"[٧٧]

وهكذا المجتمع الإسلامي؛ يدعو –عن بكرة أبيه– لأصحاب الإعاقات والعاهات وما رأينا مجتمعًا على وجه الأرض يدعو بالشفاء والرحمة لأصحاب الاحتياجات الخاصة، غير مجتمع المسلمين، ممن تربوا على منهج نبي الإسلام!.

المطلب الثامن : تحريم السخرية منهم

كان ذوو الاحتياجات الخاصة، في المجتمعات الأوربية الجاهلية، مادة للسخرية، والتسلية والفكاهة، فيجد المعاق نفسه بين نارين، نار الإقصاء والإبعاد، ونار السخرية والشماتة، ومن ثم يتحول المجتمع – في وجدان أصحاب الإعاقات– إلى دار غربة، واضهاد وفرقة .. فجاء الشرع الإسلامي السمح، ليحرّم السخرية من الناس عامة، ومن أصحاب البلوى خاصة، ورفع شعار " لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك " . وأنزل الله تعالى آيات بينات توكد تحريم هذه الخصلة الجاهلية، والتي نبتت في من نتن العصبية، والنعرات القبائلية، فقال عز من قائل :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }[الحجرات:١١]

كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "الكِبْر بطر الحق وغَمْص الناس" [٧٨] ،"وغمط الناس" : احتقارهم والاستخفاف بهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المبتلى أعظم قدرًا عند الله، أو أكبر فضلاً على الناس، علمًا وجهادًا، وتقوى وعفة وأدبًا .. نهيك عن القاعدة النبوية العامة، الفاصلة :" فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ"[٧٩]

ولقد حذر النبي ﷺ أشد التحذير، من تضليل الكفيف عن طريقه، أو إيذاءه، عبسًا وسخرية، فقال : "مَلْعُونٌ مَنْ كَمَهَ أَعْمَى عَنْ طَرِيقٍ "[٨٠]

وقال : " لَعَنَ اللَّهُ مَنْ كَمَّهَ أَعْمَى عَنْ السَّبِيلِ " [٨١]

---

[٧٦] صحيح – رواه البخاري برقم ٥٢٢٠، بَاب فَضْلِ مَنْ يُصْرَعُ مِنْ الرِّيحِ، ومسلم، برقم ٤٦٧٣ بَاب ثَوَابِ الْمُؤْمِنِ فِيمَا يُصِيبُهُ مِنْ مَرَضٍ أَوْ حُزْنٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا.

[٧٧] صحيح – رواه البخاري، كتاب المرضى،باب دعاء العائد للمريض ، ح: (٥٢٤٣)، ومسلم، كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض، ح: ٤٠٦١

[٧٨] صحيح – رواه مسلم ،ح: ٩١

[٧٩] البخاري، ح: ٥٥٨٣

[٨٠] حسن - رواه أحمد،ح: ١٧٧٩

فهذا وعيد شديد، لمن اتخذ العيوب الخلقية سببًا للتندر أو التلهي أو السخرية، أوالتقليل من شأن أصحابها، فصحاب الإعاقة هو أخ أو أب أو إبن امتحنه الله، ليكون فينًا واعظًا، وشاهدًا على قدرة الله، لا أن نجعله مادة للتلهي أو التسلي.

المطلب التاسع : رفع العزلة والمقاطعة عنهم:

فقد كان المجتمع الجاهلي في القديم- سواءً في الجزيرة العربية أو أوربا الرومانية أوأسيا الفارسية - يقاطع ذوي الاحتياجات الخاصة، ويعزلهم ويمنعهم من ممارسة حياتهم الطبيعية، كحقهم في الزواج، والاختلاط بالناس، وزيارتهم والأكل والشرب معهم..

فقد كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبيّ ﷺ لا يخالطهم في طعامهم أعرج ولاأعمى ولا مريض، وكان الناس يظنون بهم التقذّر والتقزّز. فأنزل الله تعالى:

{لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون }[النور: ٦١] [٨٢] .

أي ليس عليكم حرج في مؤاكلة المريض والأعمى والأعرج، فهؤلاء بشر مثلكم، لهم كافة الحقوق مثلكم، فلا تقاطعوهم ولا تعزلوهم ولا تهجروهم، فأكرمكم عند الله أتقاكم، "والله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أشكالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم " .

وهكذا نزل القرآن، رحمة لذوي الاحتياجات الخاصة، يواسيهم، ويساندهم نفسيًا، ويخفف عنهم . ويتقذهم من أخطر الأمراض النفسية التي تصيب المعاقين، جراء عزلتهم أو فصلهم عن الحياة الاجتماعية .

وبعكس ما فعلت الأمم الجاهلية، فلقد أحل الإسلام لذوي الاحتياجات الخاصة الزواج، فهم – والله – أصحاب قلوب مرهفة، ومشاعير جياشة، وأحاسيس نبيلة، فأقر لهم الحق في الزواج، ما داموا قادرين، وجعل لهم حقوقًا، وعليهم واجبات، و لم يستغل المسلمون ضعف ذوي الاحتياجات، فلم يأكلوا لهم حقًا، و لم يمنعوا عنهم مالاً، فعن عمر بن الخطاب أنه قال :

" أَيُّمَا رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً وَبِهَا جُنُونٌ أَوْ جُذَامٌ أَوْ بَرَصٌ فَمَسَّهَا فَلَهَا صَدَاقُهَا كَامِلًا..." [٨٣] .

---

[٨١] حسن - رواه أحمد ، ح: ٢٧٦٣

[٨٢] انظر: تفسير الطبري ، ١٩ / ص ٢١٩

[٨٣] موطأ مالك،كِتَاب النِّكَاح، بَاب مَا جَاءَ فِي الصَّدَاق وَالْحِبَاء، ح: (٩٦٩) ، ومصنف ابن أبي شيبة - (ج ٣ / ص ٣١٠)

المطلب العاشر: التيسير على ذوي الاحتياجات الخاصة :

ومن الرحمة بذوي الاحتياجات الخاصة مراعاة الشريعة لهم في كثيرٍ من الأحكام التكليفية، والتيسير عليهم ورفع الحرج عنهم، فعن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺأملى عليه: "لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله". قال: فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملها "علي" – رضي الله عنه – (لتدوينها)، فقال: يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان رجلا أعمى، قال زيد بن ثابت: فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ ، وفخذه على فخذي، فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي [من ثقل الوحي]، ثم سري عنه- فأنزل الله عز وجل: ﴿غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾[٨٤].

وقال تعالى – مخففًا عن ذوي الاحتياجات الخاصة - : {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً }[الفتح:١٧].

فرفع عنهم فريضة الجهاد في ساح القتال، فلم يكلفهم بحمل سلاح أو الخروج إلى نفير في سبيل الله، إلا إن كان تطوعًا .. ومثال ذلك، قصة عمرو بن الجموح – رضي الله عنه – في معركة أحد [شوال ٣هـ/إبريل٦٢٤ م]، فقد كان – رضوان الله عليه - رجلا أعرج شديد العرج ، وكان له بنون أربعة مثل الأسد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه ، وقالوا : له إن الله عز وجل قد عذرك ! فأتى رسول الله ﷺ فقال:إن بني يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه . فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة ! فقال نبي الرحمة ﷺ : "أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك "، ثم قال لبنيه : "ما عليكم أن لا تمنعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة" فخرج مع الجيش فقتل يوم أحد[٨٥] .

بيد أن هذا التخفيف، الذي يتمتع به المعاق في الشرع الإسلامي، يتسم بالتوازن والاعتدال، فخفف عن كل صاحب إعاقة قدر إعاقته، وكلفه قدر استطاعته، يقول القرطبي[٨٦]:

"إن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذي يشترط فيه البصر، وعن الاعرج فيما يشترط في التكليف به من المشى، وما يتعذر من الافعال مع وجود العرج، وعن المريض فيما يؤثر المرض في إسقاطه، كالصوم وشروط الصلاة وأركانها، والجهاد ونحو ذلك."

ومثال ذلك الكفيف والمجنون، فالأول مكلف بجل التكاليف الشرعية باستثناء بعض الواجبات والفرائض كالجهاد .. أما الثاني فقد رفع عنه الشارع السمح كل التكاليف، فعن عائشة أن رسول

---

[٨٤] صحيح- رواه البخاري ، كتاب الجهاد والسير، والآية في سورة النساء: رقم ٩٥ .
[٨٥] انظر: ابن هشام ٢ / ٩٠
[٨٦] تفسير القرطبي ١٢ / ٣١٣

الله ﷺ قال :" رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ عَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنْ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبَرَ وَعَنْ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ " [٨٧].

فمهما أخطأ المجنون أو ارتكب من الجرائم، فلا حد ولا حكم عليه، فعن ابن عباس قال: أتي عمر – رضي الله عنه – بمجنونة قد زنت فاستشار فيها أناسًا فأمر بها عمر أن ترجم، فمر بها على علي بن أبي طالب –رضوان الله عليه– فقال: ما شأن هذه؟

قالوا : مجنونة بني فلان زنت، فأمر بها عمر أن ترجم .

فقال: ارجعوا بها !

ثم أتاه، فقال : يا أمير المؤمنين ! أما علمت أن القلم قد رفع عن ثلاثة ، عن المجنون حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يعقل ؟ قال : بلى. قال: فما بال هذه ترجم ؟ !قال لا شيء. قال علي: فَأَرْسِلْهَا. فَأَرْسَلَهَا . فجعل عمر يُكَبِّرُ [٨٨].

هكذا كان المنهج النبوي في التعامل مع ذوي الاحتياجات الخاصة، في وقت لم تعرف فيه الشعوب ولا الأنظمة حقًا لهذه الفئة، فقرر – الشرع الإسلامي– الرعاية الكاملة والشاملة لذوي الاحتياجات الخاصة، وجعلهم في سلم أولويات المجتمع الإسلامي، وشرع العفو عن سفيههم وجاهلهم . وتكريم أصحاب البلاء منهم، لاسيما من كانت له موهبة أو حرفة نافعة أو تجربة ناجحة، وحث على عيادتهم وزيارتهم ، ورغب في الدعاء لهم، وحرّم السخرية منهم، ورفع العزلة والمقاطعة عنهم، ويسر عليهم في الأحكام ورفع عنهم الحرج. فالله الله في شريعة الإسلام ونبي الإسلام !

المبحث الرابع

رحمته للمسنين

يشهد العالم في السنوات الأخيرة اهتمامًا ملحوظًا بالمسنين، وقد شهد المجتمع الدولي أكثر من فعالية دولية، من مؤتمرات وندوات عالمية، لتناول قضايا المسنين، وشهد عام ١٩٨٢ أول إشارة من العالم المتحضر لرعاية المسنين، حيث أعلنت الأمم المتحدة، في اجتماع لمندوبي ١٢٤ دولة، أن العقد التاسع من القرن العشرين عقد المسنين، ورفعت منظمة الصحة العالمية عام ١٩٨٣ شعار "فلنضف الحياة إلى سنين العمر"، وقد تبنى مؤتمر الأمم المتحدة الذي انعقد في مدريد عام ٢٠٠٢م خطة عمل لمعالجة مشاكل المسنين في مختلف بلدان العالم ..

---

[٨٧] صحيح - رواه ابن ماجة، كِتَاب الطَّلَاق، بَاب طَلَاق الْمَعْتُوهِ وَالصَّغِيرِ وَالنَّائِمِ،ح: (٢٠٤١)، وابن خزيمة في صحيحه (١٠٠٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجة، وفي الإرواء (٢٩٧)

[٨٨] صحيح - رواه أبو داود، كِتَاب الْحُدُودِ، بَاب فِي الْمَجْنُونِ يَسْرِقُ أَوْ يُصِيبُ حَدًّا،ح: (٤٣٩٩)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود، وفي الإرواء (٢ / ٥)

والحق أن هذه المؤتمرات كانت شبيهه بالملتقيات الفكرية النظرية، فلم يطبق لها قراراً، و لم تُفعل لهـــا خطة !

وكان الأولى لهذه الفعاليات والمؤتمرات أن تقرأ في منهج نبي الإسلامﷺ ، وكيف رسم المنهج العملي في رعاية المسنين .

لقد كان نبي الرحمةﷺ سباقًا في هذا الميدان، ومرجعًا مهمًا – ينبغي أن يُأخذ به – لكل فعاليـــة أو نشاط يهدف إلى رعاية المسنين .

وينطلق منهج رعاية المسنين – في الإسلام – من منطلق إنساني سامق، بعيدًا عن التمييز بين فئـــات المسنين على أساس الجنس أو اللون أو الدين . فالإسلام لا يقرر قواعد الرعاية للمسنين من منطلـــق عنصري أو عرقي كما هو الحال في العالم " المتحضر " في هذا الوقت الراهن .

فالمسن الفرنسي ذو البشرة البيضاء له الرعاية الشاملة والحقوق الكاملة، أما المسن الأسود والـــذي يحمل نفس الجنسية لا يتمتع بمعشار ما يتمتع به المسن الأبيض، رغم أنهم أصحاب وطن واحد ودين واحد ولغة واحدة.. !

فياليت هذا العالم " المتحضر" ينظر إلى منهج نبي الإسلام مع المسنين، كل المسنين، البيض والســـود، العرب وغير العرب، المسلمين وغير المسلمين .

وإليكم بعض تعاليمه ﷺ في رعاية المسنين ..

المطلب الأول : حثه على إكرام المسنين والرفق بهم:

أولاً: مناشدة الشباب لإكرام المسنين :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ :

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ"[٨٩] .

وهكذا أوصى شباب المجتمع بشيوخه، وشباب اليوم هم شيوخ الغد، وتبقى الوصية المحمدية متواصلة ومتلاحقة مع حقب الزمن، توصي الأجيال بعضها ببعض، وفيه بشارة بطول العمر وبالقرين الصالح الذي يكرم من أكرم شيخًا، والجزاء من جنس العمل .

وانظر إلى هذا التعميم : " مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ" .. أي شيخ مسن، مهما كان لونه، ومهمـــا كان دينه، فالمسلم مطالب بإكرام المسن دون النظر إلى عقيدته أو بلده أو لونه ...

كما في حديث أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال: "والذي نفسي بيده ، لا يضع الله رحمته إلا على رحيم" ، قالوا : يا رسول الله ، كلنا يرحم ، قال :" ليس برحمة أحدكم صاحبه .. يرحم الناس

---

[٨٩] رواه الترمذي، باب ما جاء في إجلال الكبير، رقم ١٩٤٥ ، قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وحسنه صاحب الجامع الصغير، انظر: فيض القدير - (ج ٥ / ص ٥٤٣)

كافة "[٩٠] . فيرحم الناس كافة، والأطفال كافة، والمسنين كافة، بعجرهم وبجرهم، مسلمهم وغير مسلمهم .

ثانيًا: إكرام المسن من إجلال الله :

فعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ فعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قال "إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ"[٩١] .

فجعل إكرام المسنين من إجلال الله . . وربط بين توقير الخالق وتوقير المخلوق ، وإجلال القوي سبحانه وإجلال المسن الضعيف، وذكر علامة، يُكرم بها صاحبها، هي الشيب، فكان حقًا على كل من رأي هذه العلامة في إنسان إن يكرمه ويجله .

ثم انظر كيف جمع بين المسن وحامل القرآن والسلطان، وقدم المسن، كأنه يقول لك وقرْ المسن كما توقر السلطان والرئيس والحاكم، وعظم المسن كما تعظم حامل القرآن الحاذق.

وتحت لفظ " إكرام ذي الشيبة المسلم "، تأتي كل صور الرعاية والإكرام للمسنين، كالرعاية الصحية، والرعاية النفسية، والرعاية الاجتماعية والاقتصادية، ومحو الأمية، والتعليم التثقيف، وغيرها من صور العناية التي ينادي بها المجتمع الدولي الآن .

ثالثًا: ليس من المسلمين من لا يوقر الكبير :

فعن عبد الله بن عمرو : أن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قال : " لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا ويُوَقِّرْ كَبِيرَنَا "[٩٢] .

فجعل من الذين لا يوقرون الكبراء والمسنين عناصر شاذة في مجتمع المسلمين، بل وتبرأ منهم ! إذ ليس من المسلمين من لا يحترم كبيرهم، وليس من المجتمع من لم يوقر مشايخه وأكابره من المسنين . وتأمل – هداك الله – لفظة النبي " يوقر كبيرنا " – هكذا بضمير الجمع ، تعظيمًا للكبير والمسن – ، ولم يقل " يوقر الكبير"، ليقرر أن الاعتداء على الكبير أو المسن بالقول أو الفعل أو الإشارة هو اعتداء على جناب رسول الله ﷺ، الذي نسب المسن إليه وانتسب إليه، بقوله .." كبيرنا" .

رابعًا: تسليم الصغير على الكبير :

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ ، وَالْمَارُّ عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ"[٩٣] .

---

[٩٠] صحيح - رواه أبو يعلى الموصلي ٤١٤٥ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم ١٦٧

[٩١] حسن - رواه أبو داود، باب في تنزيل الناس منازلهم، رقم ٤٢٠٣، وابن أبي شيبة، برقم ٥\ ٢٢٤، والبيهقي، رقم ٢٥٧٣، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح، ٣\ ٧٨

[٩٢] صحيح – رواه الترمذي و رواه أحمد، برقم ٦٦٤٣، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥ / ٢٣٠)

[٩٣] صحيح – رواه البخاري، باب تسليم القليل على الكثير، رقم ٥٧٦٣

فقرر النماذج العملية البسيطة ، فيما يتعلق بجوانب الذوقيات الاجتماعية العامة، وبدأ بأهم هـذه المظاهر الأخلاقية والذوقية، وهو مظهر توقير الكبير واحترام المسن، فهو البند الأول في " الإتيكيـت الإسلامي ".. ولما كان الصغير هو المبادر في مثل هذه الأحوال، كان عليه فيما دون ذلك ، فيبـدأ بالمساعدة، ويبدأ بالملاطفة، ويبدأ بالزيارة، ويبدأ بالنصيحة، ويبدأ بالاتصال .. الخ

خامسًا : تقديم المسن في وجوه الإكرام عامة:

قال النبي ﷺ : " أمرني جبريل أن أقدم الأكابر " [٩٤].

وهذه قاعدة عامة في تقديم الكبير والمسن في وجوه الإكرام والتشريف عامة ..

وقد أمر النبي ﷺ أن يُبدأ الكبير بتقديم الشراب ونحوه للأكابر..فقال : "أبدؤا بالكبراء – أو قـال – بالأكابر"[٩٥].

ولقد مارس هذا الخلق عمليًا، فتقول عائشة : " كان ﷺ يستن وعنده رجلان، فأُوحي إليه : أن أعط السواك أكبرهما ! "[٩٦].

وعن عبدالله بن كعب :"كان ﷺ إذا استن أعطى السواك الأكبر، و إذا شرب أعطى الـذي عـن يمينه"[٩٧].

قال ابن بطال : فيه تقديم ذي السن في السواك ، و يلتحق به الطعام والشراب و المشي والكلام[٩٨].

ومن ثم كل وجوه الإكرام .

كما أمر ﷺ بتقديم المسن في الإمامة :

ففي الصحيح من حديث مالك بْنِ الْحُوَيْرِثِ أن النَّبِيِّ ﷺ قال :" .. فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ " [٩٩] .

وهو لا يتعارض مع تصريح النبي ﷺ بتقديم الأحفظ لكتاب الله.

وجد جمع بينهما في حديث أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ حين قَال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْـرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ وَأَقْدَمُهُمْ قِرَاءَةً، فَإِنْ كَانَتْ قِرَاءَتُهُمْ سَوَاءً فَلْيَؤُمَّهُمْ أَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَلْيَؤُمَّهُمْ أَكْبَرُهُمْ سِنًّا ..." [١٠٠] .

---

[٩٤] صحيح - رواه أبو بكر الشافعي في " الفوائد " (٩ / ٩٧ / ١) ، وهو في السلسلة الصحيحة ، برقم ١٥٥٥

[٩٥] صحيح – أخرجه أبو يعلى (٢ / ٦٣٨)، وهو في السلسلة الصحيحة، برقم ١٧٧٨

[٩٦] صحيح - رواه أبو داود، كِتَاب الطَّهَارَةِ، بَاب فِي الرَّجُلِ يَسْتَاكُ بِسِوَاكِ غَيْرِهِ ح: ٤٦، وهو في السلسلة الصحيحة - (ج ٤ / ص ١٢٩)، برقم ١٥٥٥

[٩٧] صحيح - صحيح وضعيف الجامع الصغير - (ج ١٨ / ص ٤٤٤)، برقم ٨٧٩٧.

[٩٨] انظر:الألباني السلسلة الصحيحة - (ج ٤ / ص ١٢٩)

[٩٩] صحيح البخاري، كِتَاب الْأَذَانِ، بَاب إِذَا اسْتَوَوْا فِي الْقِرَاءَةِ فَلْيَؤُمَّهُمْ أَكْبَرُهُمْ ، ح: (٥٩٥)

[١٠٠] صحيح مسلم ، كِتَاب الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، بَاب مَنْ أَحَقُّ بِالْإِمَامَةِ، ح: (١٠٧٩)

كما أن الكبير – في الهدي النبوي – أحق بالمبداءة في الكلام، والحوار، فعَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ وَسَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَهْلٍ وَمُحَيِّصَةَ بْنَ مَسْعُودٍ أَتَيَا خَيْبَرَ فَتَفَرَّقَا فِي النَّخْلِ، فَقُتِلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَهْلٍ فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلٍ وَحُوَيِّصَةُ وَمُحَيِّصَةُ ابْنَا مَسْعُودٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَتَكَلَّمُوا فِي أَمْرِ صَاحِبِهِمْ، فَبَدَأَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَكَانَ أَصْغَرَ الْقَوْمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:
"كَبِّرْ الْكُبْرَ " ..
قَالَ يَحْيَى يَعْنِي لِيَلِيَ الْكَلَامَ الْأَكْبَرُ .. الحديث[١٠١]

سادسًا : التخفيف عن المسنين في الأحكام الشرعية :

فالأحكام الشرعية في الإسلام دائما تأخذ في الاعتبار مبدأ التخفيف عن صاحب الحرج، كالمسن .. نرى ذلك بوضوح في جل التشريعات الإسلامية .. فقد خفف الشرع عن المسن في الكفارات والفرائض والواجبات..

أما التخفيف عن المسن في الكفارات، فقصة المجادلة (خولة بنت ثعلبة) في القرآن خير دليل، عندما وقع زوجها (أوس بن الصامت) – وهو الشيخ المسن – في جريمة الظهار، ونزل الحكم الشرعي العام : " وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)" [المجادلة]..

وقال رسول الله ﷺ لخولة المجادلة: "مُريه فليعتق رقبة"، فسألت التخفيف عن زوجها .فقال: "فليصم شهرين متتابعين". فقالت: والله إنه شيخ كبير، ما به من صيام. قال: "فليطعم ستين مسكينًا وسقًا من تَمر". فقلت: يا رسول الله، ما ذاك عنده ! فقال نبي الرحمة : "فإنا سنعينه بعَرَقٍ من تمر" ! و لم ينس الرسول الجليل والأب الرحيم أن يوصي المرأة الشابة بزوجها الشيخ فقال:"استوصي بابن عمك خيرًا".[١٠٢]

وفي الفرائض : أجاز للمسن أن يفطر في نهار رمضان – ويطعم – إذا شق عليه الصيام، وأن يصلي جالسًا إذا شق عليه القيام، وأن يصلي جالسًا إذا شق عليه الجلوس .. وهكذا..

ولقد عنّف الرسول ﷺ معاذ بن جبل، ذات يوم، لما صلى إمامًا فأطال فشق على المأموم، قائلا :
"يَا مُعَاذُ ! أَفَتَّانٌ أَنْتَ ! [ثَلَاثَ مِرَارٍ] ! فَلَوْلَا صَلَّيْتَ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الْحَاجَةِ !"[١٠٣]

---

[١٠١] صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إكرام الكبير، ح: (٥٦٧٧)، ومسلم، كتاب الْقَسَامَةِ وَالْمُحَارِبِينَ وَالْقِصَاصِ وَالدِّيَاتِ، بَاب الْقَسَامَةِ، ح: (٣١٥٧).
[١٠٢] تفسير ابن كثير - (ج ٨ / ص ٣٦)
[١٠٣] صحيح البخاري، كِتَاب الْأَذَان، بَاب مَنْ شَكَا إِمَامَهُ إِذَا طَوَّلَ وَقَالَ أَبُو أُسَيْدٍ طَوَّلْتَ بِنَا يَا بُنَيَّ ، ح: (٦٦٤)

ورخص للمسن أن يرسل من يحج عنه إن لم يستطع أن يمتطى وسيلة النقل . فعَنْ الْفَضْلِ أَنَّ امْـــرَأَةً مِنْ خَثْعَمَ قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ أَبِي شَيْخٌ كَبِيرٌ عَلَيْهِ فَرِيضَةُ اللَّهِ فِي الْحَجِّ ، وَهُوَ لَا يَسْـــتَطِيعُ أَنْ يَسْتَوِيَ عَلَى ظَهْرِ بَعِيرِهِ، فَقَالَ لها النَّبِيُّ ﷺ :" فَحُجِّي عَنْهُ". [١٠٤].

المطلب الثاني : نماذج رحمته ﷺ للمسنين :

أولاً: إنصاته لعتبة وتلطفه معه :

جاء عتبة بن ربيعة – أحد شيوخ المشركين في مكة– يتحدث إلى النبي ﷺ، بحديث طويل يريـــد أن يثنيه عن دعوته، وكان من بين ما قال:

أنت خير أم عبد الله؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت النبي، تأدبًا وإعراضًا عن الجاهلين !

فواصل عتبة قائلاً : إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فقل يسمع لقولك، لقد أفضحتنا في العرب حتى طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، ما تريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى[١٠٥] .. فلما عاين عتبةُ هـــذا الأدب الجم من رسول الله، خفف من حدة الحديث، وقال : يا بن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًا [يعني جنون أو مس] تراه لا تستطيع رده عن نفسك؛ طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه.

و لا زال عتبة يتحدث إلى النبيﷺ، بهذا الحديث الذي لا يخلوا من التعريض أو من التجريح، ورسول الله ﷺ في أنصات واستماع بكل احترام للشيخ ..

حتى إذا فرغ عتبة، قال له النبي ﷺ – في أدب ورفق –: " أفرغت يا أبا الوليد ؟ " قال: نعم.

قال: "اسمع مني".

قال: أفعل.

فقرأ عليه النبي أول سورة فصلت[١٠٦].

ثانيًا: سعيه لفك أسر شيخ كبير:

فلما أُسر عمرو بن أبي سفيان بن حرب، في معركة بدر، ووقع أسيرا في يد رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فقيل لأبي سفيان: افد عمرًا ابنك ! قال: أيجمع علي دمي ومالي، قتلوا حنظلة وأفـــدي عمرًا، دعوه في أيديهم يمسكوه ما بدا لهم.

---

[١٠٤] صحيح مسلم، كتاب الحج ، باب الحج عن العاجز، ح: (٢٣٧٦)

[١٠٥] السيرة الحلبية ٤٥٦/١

[١٠٦] انظر: ابن كثير : السيرة النبوية ٥٠٤/١

فبينًا هو كذلك محبوس بالمدينة عند رسول الله ﷺ إذ خرج شيخ كبير مسلم إلى مكة لأداء العمـــرة، وكان اسمه سعد بن النعمان بن أكال – أخو بني عمرو بن عوف– فخرج معتمرًا، رغم أن الظروف السياسية عصيبة لاسيما بعد بدر .. و لم يظن أنه يحبس بمكة، وقد كان عهد أن قريشًا لا يعرضـــون لأحد جاء حاجًا أو معتمرًا إلا بخير، فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بمكة، فحبسه بابنه عمرو ..

ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ فأخبروا خبره، وسألوه أن يعطـــيهم عمـــرو بـــن أبي سفيان، فيفكوا به الشيخ، ففعل رسول الله ﷺ ، وأفرج عن ابن أبي سفيان على الفور، دون فـــداء، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلى سبيل الشيخ[١٠٧].

ثالثًا:رفقه بأبي قحافة وتوقيره له :

لما دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحًا (في رمضان ٨هـــ/ يناير ٦٣٠ م)، ودخل المسجد الحرام، أتى أبو بكر بأبيه يقوده إلى حضرة النبي ﷺ، ليتعرف عليه، لعله أن يسلم . فلما رآه رسول الله ﷺ قال:

" هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه ؟ ! " .

قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى أنت إليه! !

فأجلسه النبيﷺ بين يديه، وأكرمه، ثم مسح على صدره، ثم قال:" أسلم"

فأسلم.

ودخل به أبو بكر وكان رأسه كالثغامة[١٠٨] بياضًا من شدة الشيب.

فقال رسول الله ﷺ– في تلطف جم وذوق رفيع –: " غيروا هذا من شعره ! "[١٠٩].

وأخيرًا، يمكن أن نلخص الهدي النبوي في التعامل مع المسنين في عدة نقاط هي :

١–مسؤولية المجتمع بكامله — خاصة الشباب – عن شويخه ومسنيه، علمًا بأن رعاية المسنين واجب عيني على الأنظمة والحكومات والشعوب . ويمتد الواجب إلى حشد الجهود الفردية والجماعية والرسمية وغير الرسمية لرعاية المسنين .

٢– الرعاية الكاملة والشاملة للمسن، صحيًا نفسيًا وعقليًا واجتماعيًا، وغيرها من صور العناية وقد جمعها اللفظ النبوي في جملة " إكرام ذي الشيبة " ..

٣–توقير المسنين في المعاملات الاجتماعية اليومية المختلفة .

٤–تقديم المسنين في وجوه الإكرام عامة، كالإمامة والطعام والشراب .

٥–التخفيف عن المسنين في الأحكام الشرعية، ومراعاة الفتوى الشرعية لهم .

---

[١٠٧] محمد بن يوسف الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد - (ج ٤ / ص ٧٠)

[١٠٨] واحدة الثغام، وهو نبت أبيض، أو كالسحابة البيضاء دلالة على شدة بياض شعره .

[١٠٩] انظر: ابن كثير : السيرة النبوية (ج ٣ / ص ٥٥٨)

الكاتب في سطور

محمد مسعد ياقوت – كاتب وداعية إسلامي مقيم في مصر .

المشرف العام على موقع نبي الرحمة

www.nabialrahma.com

البريد الإلكتروني yakoote@gmail.com :

المدونة الشخصية : yakut.blogspot.com

جوال ٠١٠٤٤٢٠٥٣٩(٠٠٢)

الأعمال التي قام بها:

- مدير تحرير موقع نبي الرحمة www.nabialrahma.com
- مستشار تربوي بموقع المستشار www.almostshar.com
- باحث في النطاق الشرعي بموقع إسلام أون لاين www.islamonline.net
- باحث متفرغ لإعداد مشروع علمي في مؤسسة أحمد بهاء الدين الثقافية.
- يكتب في العديد من المجلات العربية والإسلامية كمجلة المجتمع الكويتية، ومجلة البيان اللندنية، ومجلة المعرفة السعودية، ومجلة الرسالة المصرية، ومجلة آراء حول الخليج الإماراتية، ويكتب في شبكة إسلام أون لاين . نت.
- قدم سلسلة حلقات عن الثقافة العلمية وأزمة البحث العلمي، في القناة السادسة المصرية
- أعد سلسلة حلقات عن أخلاقيات الحرب في الإسلام. في قناة الأمة الفضائية .
- له موقع شخصي متخصص في شؤون البحث العلمي وواقع البحث العلمي ومناهج البحث العلمي yakut.blogspot.com
- يمارس الخطابة الدينية في مساجد مصر .
- ألقى العديد من المحاضرات الفكرية والثقافية في العديد من المحافل.

المؤلفات :

- الاختلاط وأثره على التحصيل العلمي والابتكار- رؤية شرعية – ، البحث الفائز بجائزة موقع المرأة " لها أون لاين" للثقافة و الإبداع ، عام ٢٠٠٤
- حوار الحضارات : الموجود والمفقود والمنشود، بحث مقدم إلى منظمة الكتاب الأفريقيين والأسيويين ، أغسطس ٢٠٠٥م ـــ .
- هروب النخب العلمية ، بين واقع التريف وسبل العلاج : بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي العاشر للندوة العالمية للشباب الإسلامي، " الشباب وبناء المستقبل" .
- صفات رجل البر، تحت الطبع.

-عناية الكتاب والسنة بالمسجد الأقصى المبارك ، لم يطبع بعد .

- حق النصرة للشعب الفلسطيني ماديًا ومعنويًا، لم يطبع بعد .

- التجديد والمجددون في الإسلام، لم يطبع بعد .

- غزوات الرسول .. دروس وعبر في آداب الحروب .

- الرقائق والخواطر ، تحت الإعداد

- قيم حضارية في السيرة النبوية، كتاب إلكتروني.

- قصص قصيرة منشورة في المجلات المواقع [بار أحرنوت – سجين رأي – المسكن الشعبي – على الطريقة الفيدرالية –السجينة – طوابير النهضة – ملحمة شاعر]

-صنائع المعروف، ثلاثون بابًا من أبواب الخير، القاهرة ، دار النشر للجامعات، ٢٠٠٧

- أزمة البحث العلمي في مصر والوطن العربي، القاهرة : دار النشر للجامعات، الطبعة الأولى، يناير ٢٠٠٧م

www.nabialrahma.com